عقبات في طريق عالمية اللغة العربية

تأليف

نايف الشمري

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديهم واقتدى بسنتهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فلما كانت اللغة العربية لغةَ القرآن الكريم، كان الاهتمامُ بها جزءاً من الاهتمام بالقرآن الكريم، وأمست أهميَّةُ الحفاظ عليها وعلى تنقيتها من الشوائب جزءاً من أهمية الحفاظ على القرآن الكريم؛ لكون اللغة العربية هي الوعاء الذي يحتضن القرآن الكريم، وهي حلقة الوصل بين الخطاب الإلهي والعقل البشري.

ومن هنا كان لزاماً على المسلمين أن يقوموا بواجبهم تجاه الحفاظ على هذه اللغة؛ لأنَّ المنطق الإنساني يقتضي أن اللغات بتعاقب الأزمنة عليها تعتريها شوائب كثيرة قد تخل بها جوهراً أو شكلاً أو الاثنين معاً، لاسيما إن توسَّعت الرقعة الجغرافية للغة، وكثر المتكلمون بها. واللغة العربية ليست استثناء من هذه السنَّة التاريخية، فلقد لحقها ما يُعكّر صفو تقدمها لتكون في مقدمة اللغات العالمية في عصرنا الحالي.

وفي هذا السياق تأتي هذه المقالة "**عقبات في طريق عالمية اللغة العربية**" لتساهم في تبيين العقبات التي تعترض وصول اللغة العربية على رأس اللغات العالمية في وقتنا المعاصر.

تمهيد

يعيش العالم اليوم عولمةً في مجالات الحياة، وأصبحت المعارف والعلوم والثقافات متداولة بين جميع أقطار العالم، فلم تعد هناك قيمة للعامل الجغرافي أو حتى العامل الزمني. في ظل هذه العولمة يحتاج الناس إلى لغة عالمية تكون وسيلة لنقل المعارف والثقافات بين البشرية، فحينما يجلس العربي بجانب الصيني أو الياباني فإنه يريد لغة مشتركة بينه وبينهم حتى يتم التبادل المعرفي بسلاسة وسهولة، وإلا فلن يكون هناك نفع حقيقي من العولمة. ومن المنطق أن تكون اللغة المختارة لتكون لغة عالمية لغةً سهلة ميسرة، يمكن إتقانها والتمكن منها بأسهل الطرق وأيسرها.

فالسؤال هنا: هل اللغة العربية في وضعها الحالي مؤهلة لأن تكون تلك اللغة العالمية؟ وهل ثمة سبل ميسرة تؤدي إلى إتقان اللغة العربية والتمكن منها بنحو ميسَّر؟

في رأي الباحث أنَّ هناك عقبات حقيقية من شأنها الحيلولة دون بلوغ اللغة العربية المرتبة الأولى عالمياً، وهذه العقبات تستلزم معالجة فعالة عملية، ولا ينفع في إزالتها تبجحنا بعِظَمِ لغتنا، وجمالها وبلاغتها، بل وقداستها، كل ذلك لن يعود على اللغة العربية بالإصلاح والنفع، ولن يزحزح قيد أنملة العقبات التي تحول دون عالمية اللغة العربية.

في رأي الباحث هناك العديد من العقبات، واستقصاؤها عَصيٌّ، ولذلك سيتم التعريج على ما يرى الباحث أنه أهمها وأولاها بالذكر.

العقبة الأولى: حامل اللغة.

إنَّ أيسر طريق لتعلم أي لغة يكمن في ممارستها، فما دمت تمارس لغةً فأنت تتعلمها، وأما إن عدمت الممارسة فإن تعلم اللغة يأخذ مأخذاً غاية في الصعوبة. وإذا رأينا اللغة الإنجليزية مثلاً، فإن عملية ممارستها غاية في السهولة واليسر؛ لأنَّ كل رجل انجليزي يعدُّ محلاً صالحاً لممارسة اللغة، بل حتى الطفل الصغير يمكن لمن أراد تعلم اللغة الإنجليزية أن يمارس اللغة معه، وسيجد كلامه متوافقاً في الأصل مع قواعد اللغة الإنجليزية. لكن إذا رجعنا إلى اللغة العربية فالأمر غاية في الإشكال، ذلك لأنَّ حامل اللغة العربية اليوم لا يريد ممارستها، وإن أراد ممارستها فهو غير قادر على ممارستها ممارسة تتوافق مع قواعد اللغة العربية،[1] وليس هذا الأمر مقتصراً على غير المتعلمين فحسب، بل حتى على مستوى النُّخب المثقفة، فمن النادر أن تجد مثقفاً يتكلم بلغة عربية سليمة لا شية فيها.

حينما كنت طالباً في إحدى الجامعات الأمريكية، كان هناك برنامج لتعليم اللغة العربية، وكان الطلاب الأمريكيون يبحثون في الجامعة كلها عن أي طالب عربي يتقن اللغة الفصحى لكي يتعلموا منه، لكنهم للأسف لا يجدون. يحكي لي أحد الطلبة الأمريكيين بأنه كان يتحدث مع طالبٍ عربي اللغةَ العربية، فسأله هل نقول: "نحن طلاب كثيرون" أم " نحن طلاب كثيرين". فيرد عليه الطلاب العربي بأنهما سيَّان !! هذه حقيقةً هي أسُّ المشكلة؛ وهي أنَّ حامل اللغة العربية لا يميز صحيح اللغة من سقيمها، بخلاف حامل اللغة الإنجليزية فهو قادرٌ على تمييز ما هو صحيح من لغته وما هو ليس كذلك، ومن الطبيعي أنَّ اللغة التي لا تُمارس من أربابها_ وبل وليسوا قادرين أصلاً على ممارستها_ لن تكون خليقة بأن تكون اللغة الأولى في العالم.

[1] وذلك لأنَّ الحامل الحقيقي للغة العربية مفقود منذ مئات السنين، فلا يوجد اليوم عربي يتحدث العربية سليقة على نحو صحيح، وإنما الموجود عرب يتعلمون العربية. وهذا على خلاف الحال في اللغة الإنجليزية.

العقبة الثانية: ضعف المخزون المعرفي.

اللغة في نهاية المطاف ليست إلا وعاء، وقيمة الوعاء تكمن في قيمة ما فيه، فإن كان الوعاء عارياً وفارغاً فإنه جدير بألا يُعنى به ولا يُلتفت إليه، ولذلك نجد أنَّ من أهم دواعي تعلم اللغة الإنجليزية في عصرنا الحالي هو ما تكتنزه من معارف وعلوم حديثة.

فهل يستطيع أيُّ طبيب اليوم أن يكون عالماً ومتميزاً دون إدراكه للغة الإنجليزية؟ كيف إذن سيواكب التطورات البحثية الطبية؟ هل ينتظر يومياً مَن يُترجم له مَا يستجد؟ ثم إنما تكون الابتكارات الطبية بلغة مبتكريها، وهي اللغة الإنجليزية، فإن كان الطبيب لا يستطيع إدراك اللغة الإنجليزية، فكيف سيواكب هذه الابتكارات؟ وكذلك هو الحال مع رجالات الفنون الأخرى.

إذن، أحد أهم معايير الاهتمام بأي لغة هو المخزون المعرفي والكم الحضاري الذي تحتويه، وهذا يقودنا إلى السؤال الجوهري: ماذا لدى العرب اليوم من معارف وعلوم حديثة؟ وما مقدار الأبحاث العلمية والابتكارات والإنجازات المعرفية التي ينجزها العرب سنوياً؟[2]

إنَّ الخجل يعتري أي باحث عربي إذا علمنا أنَّ إنفاق إسرائيل وحدها على البحث العلمي يفوق إنفاق كل الدولة العربية مجتمعة !![3] ذلك لأن الدول العربية اشتغلت وانشغلت بالإنفاق الضخم على الشؤون التي لا تعود بالنفع على مواطنيها، كالشؤون الرياضية والعسكرية، وأضحى التعليم أمراً كمالياً تحسينيا.

لو نظرنا اليوم إلى جميع المجالات العلمية، سواء أكانت علوماً تطبيقية أم علوماً إنسانية أم علوماً اجتماعية، فإنا نجدها عند الغرب معارف خصبة وفعَّالة، فعلم السياسة مثلاً لا يفتأ الغرب في إضفاء

---

[2] أصدر البنك الدولي تقريراً من مئة في عام 2008م بعنوان: The Road Not Traveled : Education Reform in the Middle East and North Africa، يحذر فيه من التخلف التعليمي في الوطن العربي، ويذكر فيه أن التعليم في الوطن العربي ما زال يراوح مكانه. http://web.worldbank.org

[3] ياقوت، محمد مسعد، **البحوث العلمية في العالم العربي غير مجدية**، http://www.saaid.net/Minute/197.htm

نظريات حديثة من شأنها ضمان فعالية هذا العلم، فعلى سبيل المثال ابتكر أحد السياسيين الأمريكيين قبل عدة أعوام نظرية حديثة في علم السياسة تسمى "الخيار العقلاني" Rational Choice.[4]

وكذلك إذا نظرنا إلى علم الاقتصاد، ففيما يتعلق بالمصارف تحديداً نجد أن العالم العربي يعيش عالة على المنتجات المصرفية الغربية، ولا يولد شيئاً من عنده، وإنما غاية جهده أن يعيد هيكلتها بما يتوافق وطبيعة الوضعي الاقتصادي المناسب للدولة. وطبيعي أننا لا نستطيع أن نستوعب تلك المنتجات المصرفية ونحن لا نجيد اللغة الإنجليزية.

لكن إذا رجعنا إلى اللغة العربية، فما الذي سوف يفقده المصرفي الغربي مثلاً إذا لم يكن يعرف اللغة العربية؟ هل سيفوته إدراك المنتجات المصرفية العربية الهائلة؟ وماذا سيفوت السياسي الغربي إذا لم يتعلم اللغة العربية؟ هل سيجهل النظريات السياسية التي ينجبها رحم العقل العربي كل حين؟

إننا نجد اليوم من يعيب على الاقتصادي إن لم يعرف اللغة الإنجليزية، فيُقال له: لن تتمكن من الاقتصاد إن لم تتقن اللغة الإنجليزية، لكن هل يستطيع أحد أن يقول للاقتصادي الغربي: لن تتقن علم الاقتصاد إن لم تتعلم اللغة العربية ؟

إنَّ المخزون المعرفي العربي الحديث في غاية الضعف والهوان، يعيش عالة على غيره، ولا يمد غيره بشيء يذكر، ومعلومٌ أن من أهم دواعي تعلم أي لغة، هو المقدار المعرفي الذي تحتويه، وعليه فإن ضعف الكم المعرفي عند العرب يُعدُّ من عقبات تعلم اللغة العربية، ومن دواعي صرف النظر عنها.

---

[4] John Scott, Rational Choice Theory, http://privatewww.essex.ac.uk/~scottj

العقبة الثالثة: غياب اللغة العربية عن الفن العربي.

من أهم وسائل انتشار أي لغة هو تجسدها في الواقع الفني، سواء أكان غناء أم أفلاماً أم مسرحيات أم غير ذلك من الأدوات الفنية، ذلك لأن للأدوات الفنية دوراً ساحراً في انتشار اللغة أو اللهجة الممارسة في تلك الأدوات.

فإذا جئنا إلى اللهجة المصرية فإنا نجدها تعد من أشهر اللهجات في الوطن العربي، وإذا عدنا للأسباب، فإننا نجد أن من أهمها شيوع الأفلام والمسلسلات المصرية، وتصدر مطربو مصر الساحة منذ الستينات، كعبد الحليم حافظ وأم كلثوم وغيرهما. وكذلك الحال بالنسبة للغة الإنجليزية، فإن من أهم عوامل انتشارها هو الأفلام الأمريكية التي يشاهدها مئات الملايين، وأضحت الأفلام المفضلة في الشرق والغرب.

أما اللغة العربية، فلا تتم ممارستها في الأدوات الفنية، فأهل المغرب مثلاً يقدمون مسرحياتهم باللهجة المغربية التي دون فهمها خرط القتاد بالنسبة لغيرهم.

كان هناك في السابق مسلسل للأطفال يُسمَّى "افتح يا سمسم" وكان الممثلون يتحدثون اللغة العربية الفصحى، وقد كان لهذا المسلسل أثر كبير في جعل الناس _لاسيما الأطفال_ يتحدثون الفصحى فيما بينهم. هذا كان مسلسلاً واحداً، فما بالك لو كانت جميع الأفلام والمسلسلات باللغة الفصحى؟ بالتأكيد سينعكس ذلك ضرورة على المجتمعات لا سيما فئة الشباب منهم.

واليوم عاد استعمال اللغة العربية في جزء صغير من الفن، وهو المتعلق بالمسلسلات التاريخية، حيث يتحدث فيها الممثلون باللغة الفصحى، لكن هذا الجزء الصغير لا يمكن أن يؤدي الدور المطلوب من خلال تغريده وحيداً في الساحة.

العقبة الرابعة: ضآلة حضور اللغة العربية عن الإعلام العربي.

إذا ما استثنينا قنوات تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، فإنَّ معظم القنوات التي تدعي أنها عربية تتحدث في برامجها بلهجات مذيعيها، وحتى تلك القنوات التي تتحدث في نشرات أخبارها باللغة العربية الفصحى فإنها لا تلتزم ذلك في حوار مذيعيها مع الضيوف ولا في البرامج الأخرى.

إن جامعة جورجتاون الأمريكية _على سبيل المثال_ ترفض أن يشاهد طلابها ممن يريد تعلم اللغة العربية جميع القنوات العربية باستثناء قناة الجزيرة الفضائية؛ لأنها القناة الوحيدة التي تلتزم بأن تُتحدث اللغة العربية الفصحى في جميع برامجها. وهذا الأمر لاشك أنَّه يُعقِّدُ من مهمة مريدي تعلم اللغة العربية؛ لأن متابعة وسائل الإعلام والاستماع لها من أكثر الوسائل إعانة على إجادةِ لغةٍ ما، فإذا فقدت هذه الآلية تعسَّرت المهمة.

العقبة السادسة: تلاشي الاعتزاز بالانتماء للغة العربية.

كان هناك برنامج في إحدى القنوات الفضائية يجري عملية استقرائية على طلاب المدارس الثانوية في لبنان، فذكر أحد الطلبة أنَّهم لا يجدون متعة إلا عندما يتحدثون اللغة الفرنسية، أما اللغة العربية فلا يتكلمونها إلا على وجه التهكم والسخرية.

ما قاله هذا الشاب يعكس الواقع المعيش عند كثيرين للأسف الشديد، فهناك كثيرون من الآباء والأمهات يتحدثون مع أولادهم غير العربية، وهم عرب في بلاد العرب، بل أكثر من ذلك أنَّ هناك من يطلب من المدرسة أن تُعفي أبناءه من دروس مادة اللغة العربية!.

النتائج

1- أنه لا نزاع ولا خلاف في أفضلية اللغة العربية ودقتها، فهي اللغة التي اختارها الله تعالى لكتابه الكريم.

2- أن هناك عقبات من شأنها الحيلولة بين اللغة العربية وبلوغها العالمية، ومن تلك العقبات:

أ- حامل اللغة نفسه، إذ إن اللغة العربية لا تُتحدث من أربابها.

ب- ضعف المخزون المعرفي، فالعلوم والمعارف الحديثة والمستجدات العلمية تنشا بعيداً عن الأرض العربي.

3- أنه لا سبيل إلى أن يُدَّعى استحقاق اللغة العربية لأن تكون اللغة الأولى في العالم، ما لم تُتخذ خطوات حقيقية في إزالة تلك العقبات، ومن تلك الخطوات:

أ- أن يُعاود العرب استعمال اللغة العربية الفصحى، وقبل هذا يجب عليهم أن يكونوا على مقدرة من مزاولتها مزاولة صحيحة، لا سيما في المؤسسات التعليمية.

ب- أن تكون اللغة ممارسة في الوسائل الفنية، كالأفلام والمسلسلات.

ج- إعادة تدريس اللغة العربية على نحو ميسر ومبسط، بعيداً عن تعقيدات اللغويين واختلافاتهم.

ب- في مثل هذه الحالات لا يكون الحل الفردي مجدياً بالقدر المطلوب، بل لابد أن يكون هناك حل على مستوى الدول العربية بأكملها، وهذا يكون من خلال تبني الجامعة العربية سياسة جادة تجاه الحفاظ على اللغة العربية، كأن تقرر مثلاً إلزام الجامعات العربية بأن يكون التدريس فيها باللغة العربية الفصحى.

المراجع باللغة العربية

1- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، عثمان ضميرية، سليمان الحرش، (دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط4، 1997م).
2- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سمير البخاري، (الرياض، دار عالم الكتب، د.ط، 2003م).
3- ياقوت، محمد مسعد، **البحوث العلمية في العالم العربي غير مجدية**، http://www.saaid.net/Minute/197.htm

المراجع باللغة الإنجليزية:

[1] John Scott, Rational Choice Theory, http://privatewww.essex.ac.uk/~scottj